

سورة النمل

مكية وهي مع البسمة أربع وتسعون آية وسبعة ركعات

زمن نزولها: هي سورة مكية عند ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما. وباقي علماء المسلمين أيضاً يؤيدون رأيهما. كما أن المستشرق "ويري" أيضاً يعتبرها مكية. (فتح البيان، وتفسير القرآن لويري)

الترايط: تكمن الصلة القريبة لهذه السورة بسورة "الشعراء" في أن الله ﷻ قد أخبر في آخر سورة "الشعراء" بغلبة المؤمنين وهلاك الكافرين، إلا أنها قد ركزت خاصة على بيان أن من سنة الله المستمرة إهلاك الكافرين دائماً فكيف لا يهلكون الآن؟ أما هذه السورة فلا شك أنها قد تحدثت عند نهايتها عن هلاك الكافرين أيضاً، ولكنها ركزت خاصة على الجانب الآخر من هذه السنة الإلهية، أي أن الذين لبوا نداء الله ﷻ، وخضعوا للعقائد والأخلاق والنظام التي وضعها الله ﷻ قد نالوا العز والغلبة دائماً رغم ضعفهم. كما بين الله فيها أيضاً أن رُقي المسلمين لن يكون مؤقتاً بل سيستمر مدة طويلة، وأنهم لن يحكموا بلادهم فحسب، بل سيصبحون ملوكاً على البلاد الأخرى أيضاً.

وتكمن الصلة الأخرى لهذه السورة بسورة الشعراء في أن الله ﷻ قال في آخر الشعراء إن هؤلاء يتهمون هذا النبي بكونه شاعراً، زاعمين أن الشيطان ينزل عليه، مع أن الشياطين ينزلون على كل أفك أئيم، ومن دأبهم أنهم يسمعون أحكام الله ﷻ ويقدمونها للناس في كلامهم ولكنهم كاذبون، بمعنى أنهم يدسون في التعاليم السماوية كثيراً من أكاذيبهم، فلا تكون تعاليمهم نافعة. أما الشعراء الذين يتبعون الشياطين فلا يتبعهم إلا الغاؤون، إذ لا يكون وراء شعرهم هدف ولا غاية، إنما يريدون زخرفة الكلام. ألا ترى أنهم في كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون. أما في هذه السورة - النمل - فقد بين الله ﷻ أن آيات هذه السورة

آياتُ كتابٍ سِيْفَرًا دائِمًا، وهو يتناول كافة القضايا الدينية بشكل واضح مصحوب بالأدلة، ويهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم، ويبشّر العاملين به بالعاقبة الحسنى؛ فلذا لا يمكن أن تكون هذه التعاليم من قبل الشيطان، لأنه لا يهدي إلى الطريق المستقيم ولا يخطئ من يتبعه برحمة الله وبركاته. وإنما المؤمنون بهذا الكتاب الذين يعبدون الله ﷻ ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالوحي القادم أو بالحياة القادمة؛ بمعنى أن تعليم الشيطان يكون مليئًا بالكذب خاليًا من الهدى، والذين يتبعون أوامر الشيطان ينحرفون عن جادة الحق والهدى، أما هذا الكتاب فهو مليء بالهدى والحق، والذين يؤمنون به يعبدون الله ﷻ ويحسنون إلى الناس أيضًا، ويكونون مستعدين دائمًا لتصديق ما ينزل من عنده تعالى، كما تظل فكرة الحياة الآخرة مستولية على أفكارهم كل حين. إذاً، فمن المستحيل أن تنزل الشياطين على محمد رسول الله ﷺ الذي أتى بكتاب فيه هدى وبشرى، كما لا يمكن أن يكون شاعرًا أيضًا لأن المؤمنين به يضربون أروع الأمثلة في حب الله ﷻ والعطف على الناس.

ملخص فحواها: لقد استهلّت هذه السورة بمقطع "طس" الذي قد ورد في بداية سورة الشعراء مضافاً إليه حرف الميم، إذاً فهذه السورة تسلسلٌ لنفس الموضوع الذي تعالجه سورة الشعراء. وحرف "طاء" في "طس" اختزال لصفة الله "اللطيف"، وحرف "السين" لصفة "السميع".

ثم يقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.. أي أن آيات هذه السورة جزء من القرآن الكريم وأنها آيات من كتاب يذكر بنفسه أدلة صدقه، كما أنه هدي كامل؛ ذلك لأن لفظ ﴿هُدًى﴾ قد وردت هنا نكرة، والتنكير يفيد التعظيم أيضًا. (انظر كتاب العروس للسبكي، شرح مختصر المعاني الجزء الأول ص ٣٤٩) (الآيتان ١-٢).

ثم يقول الله ﷻ إن هذا الكتاب بشرى للمؤمنين الذين يتقدمون أمام الله تعالى بعبادتهم الجسمانية دائماً، ولا يقومون بعبادته منفردين، بل يدعون الآخرين أيضًا إلى عبادته ويصلّون جماعة - كما هو ظاهر من كلمة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، إذ إن الإقامة لا تقال إلا في صلاة الجماعة. والمؤمنون الذين يكون لهم القرآن بشرى ينفقون جزءاً

من أموالهم على الفقراء والمعدمين دائماً، ولا ينفقونها من أجل السيادة والزعامة؛ بل ليرضى الله عنهم. وإنهم يوقنون بالآخرة، أي أنهم سيتبأون ببركة طاعة الله الدرجات العلى مادياً وروحانياً. (الآيتان ٣-٤)

الذين لا يؤمنون بمآل أعمالهم سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة يرون أعمالهم جميلة، ويظنون هائمين على وجوههم، وسينالون العقاب، ومصيرهم الفشل والخسران. (الآيتان ٥-٦)

إن القرآن الذي نزل عليك هو من عند الله الذي هو ذو حكمة وعلم، لذلك فهو مليء بكثير من البركات والحكم والعلوم. (الآية ٧)

نقص عليك قصة موسى إذ قال لأهله إني أبصرتُ ناراً، فسأذهب إليها عسى أن آتيكم بمعلومات عن هذا البلد أو الطريق، أو آتيكم منها بجمرة تستدفئون به. (الآية ٨)

فلما اقترب موسى ﷺ من النار نُودي: مبارك الذي ترى تجلّيه في هذه النار، ومباركة أيضاً المنطقة حولها، أي أن الله رب العالمين الذي أراك تجلّيه في هذه النار منزّه من كل عيب، وسينال الذين يؤمنون بهذا الوحي بركة عظيمة. ♦ (الآية ٩)

وقال الله ﷻ يا موسى الحق أنني أنا الله العزيز الحكيم.. أي أن المشهد الذي رأيته هو الجلال الإلهي، فألق عصاك. فلما ألقى موسى عصاه وجد أنها تهمز كالحيّة، فخاف وولّى مدبراً، فأوحى الله إليه يا موسى لا تخف، إنما هم أعدائي الذين يخافونني وليس رسلي، إلا من ظلم بالخطأ ثم عاد إلى الخير فإنني ذو مغفرة ورحمة واسعتين. (الآيات ١٠-١٢)

وأدخل يدك في جيبك وعندما تخرجها تجدها بيضاء أي تجدها ساطعة ولكن بدون أي عيب أو مرض. (الآية ١٣)

هذه الآية التي آتينها موسى كانت ضمن تسع آيات أرسل بها إلى فرعون وقومه لأنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن الطاعة. فلما ذهب موسى إلى فرعون وقومه

♦ هكذا ورد هنا، وقرأ التفصيل لدى تفسير هذه الآية. (المترجم)

لم ينتفعوا بتلك الآيات التي كانت آيات واضحة بينة تهدي إلى الحق، وقالوا إن هذا إلا خداع مكشوف، فرفضوا الآيات بشدة مع أن قلوبهم كانت مستيقنة بصدقها. فالحق أنهم لم يكفروا بها إلا ظلمًا واستكبارًا، فانظر كيف كانت عاقبة مثل هؤلاء المفسدين. (الآيتان ١٤-١٥)

ثم بعد قصة موسى عليه السلام يذكر الله تعالى داود وسليمان، ويسجل قولهما بأن الله تعالى قد فضّلهما على كثير من عباده المؤمنين.. أي بالخلافة الروحانية والمادية. (الآية ١٦)

ثم أخبر الله تعالى أنه بعد وفاة داود تولى سليمان الحكم، وقال إني علّمتُ منطوق الطير.. أي لسان أولئك القوم الذين يخلقون عاليًا.. أي لغة أنبياء الله تعالى، وأن الله قد أعطاه كل ما يحتاج إليه، ولا يتيسر هذا لأحد إلا بفضل خاص من عند الله تعالى. (الآية ١٧)

ثم يقول الله تعالى أنه عرض على سليمان ذات مرة جنوده من الجن والإنس والطيور، فاصطفتُ أمامه في صفوف - وهذه الكلمات تدل على أنه كان يتجهز لمحاربة بعض البلاد. (الآية ١٨)

وبينما هو خارج مع جنوده مرّ على وادي قبيلة اسمها "النمل" - وقد ظن المفسرون خطأً أنه وادي حشرات النمل - فلما رأت ملكة قوم "النمل" سليمان وجنوده قالت لقومها يا قوم، ادخلوا كلكم في بيوتكم لكي لا يظن سليمان وجنوده أننا نريد محاربتهم فيدوسونا تحت أرجلهم. فتبسم سليمان من قول الملكة ضاحكًا، وحمد الله أنه قد أذاع صيته الحسن في أقطار نائية من الأرض حتى يعرف أهلها أن سليمان ليس بظالم، بل يعامل الشعوب الضعيفة بالعدل. (الآيتان ١٩-٢٠)

فتفقدَ سليمان عندئذ جنوده، فوجد أن أحد قادته "المُدْهُد" غائب، فأصابه القلق على غياب قائد كبير في ذلك الوقت الحرج، فقال: سأعاقبه عقابًا شديدًا أو سأقتله إلا أن يأتي ببرهان مبين عن سبب غيابه. (الآيتان ٢١-٢٢)

فما لبث أن رجع هذا القائد وأوضح لسليمان أنه لما رآه عازمًا على شن الغارة على مُلْك قوم سبأ، سبقه للتجسس عليهم، وها هو تقريره بهذا الصدد. إن هذا

القطر تحكمه امرأة بكل قوة، وهي تملك كل نوع من العدة والعتاد وملكها عظيم. ولكن يوجد في أهل تلك البلاد عيب شنيع وهو أن الملكة وقومها يعبدون الشمس معرضين عن وحدانية الله تعالى. فعلم سليمان عليه السلام أن قائده لم يغب إلا بنية حسنة، فقال: حسناً، سنذهب هناك ونرى ما إذا كنت صادقاً أم لا؟ فاذهب برسالتني هذه وضعها أمام الملكة وحاشيتها، ثم تأخر قليلاً وانتظر جوابهم بأدب ولباقة. (الآيات ٢٣-٢٩)

فلما عرض "الهدهد" رسالة سليمان على الملكة قالت لحاشيتها: إنه مكتوب كريم من قبل سليمان، وقد ورد فيه ألا تتمردوا عليّ وأتوني منقادين. (الآيات ٣٠-٣٢)

ثم قالت ملكة سبأ لرؤساء قومها: ماذا تقترحون عليّ في هذه المعضلة العويصة؟ قالوا نحن قادة محنكون أولو بأس شديد، ولكن القرار في يدك. قالت إن الملوك إذا دخلوا بلدًا بجنودهم عاثوا فيه فسادًا، وجعلوا أعزة أهله أذلة مهانين، فأقترح أن أبعث إلى سليمان هدية وأنظر ما يرجع به رسلي من جواب. (الآيات ٣٣-٣٥)

فلما قدمت الهدية لسليمان قال لقد أعطاني الله تعالى أفضل مما عندهم، وإن هذه الهدية التي بعثوها إلي كرشوة لن تشينني عن عزمي. فارجع يا "هدهد" إليهم وأخبرهم أننا سنغير عليهم الآن جنود لا قبل لهم بها.

ثم قال سليمان عليه السلام لقادة جيوشه: من يأتي بعرش هذه الملكة قبل أن يأتيني قومها منقادين؟ فقال أحد القادة: سأتيك بعرشها قبل أن تشن عليهم الهجوم، وسأكون أمينًا في نقل هذه الثروة العظيمة إليك. فقال شخص آخر عنده علم الدين: إن هذا سيحضر إليك العرش بتأخير، ولكني سأحضره بلمح البصر، أي سوف أصنع لك عرشًا جديدًا أفضل من عرشها وأحضره في بلاطك فوراً. فجيء بالعرش فلما رآه سليمان حمد الله تعالى وقال لهم: اجعلوه أفضل ما يكون حتى يبدو عرش الملكة حقيراً أمامه، لأرى ما إذا كانت تصرّ على كبريائها بعد رؤيته أم تعترف بفضلي. فنفذوا أوامره. فلما جاءت الملكة قيل لها: أهكذا عرشك؟ فبدلاً من أن تعترف بأن عرش سليمان أفضل من عرشها قالت كأنه هو. (الآيات ٣٦-٤٣)

ولكي يكشف سليمان للملكة حقيقة التوحيد وشناعة الشرك بمثال عملي بنى قصرًا زجاجيًا يجري الماء تحته، فلما دخلت الملكة القصر الزجاجي ظنت أن الماء يجري على أرضيته، فرفعت ثوبها عن ساقها فرغًا، فقال لها سليمان: لقد أخطأت فإنه ليس ماءً، بل الماء تحت الزجاج. ففهمت الملكة بهذا الدليل صدق عقيدة التوحيد، فأمنت بسليمان متبرئةً من عقيدة الشرك. (الآيات ٤٤-٤٥)

بعد واقعة سليمان ذكر الله ﷻ قوم ثمود لأن بلادهم خضعت لحكم سليمان. لقد قال الله ﷻ إن نبيهم صالحًا دعاهم إلى التوحيد ولكنهم صاروا فريقين، فريق آمن وفريق كفر. عندما نصحهم نبيهم قالوا يا صالح إننا نتشاءم منك، فأجابهم أنا أيضًا أخاف عليكم مصيرًا تغيثًا لأنكم قد تركتم دين الحق. وكان في القوم تسعة رؤساء، فحرض بعضهم بعضًا وحلفوا أنهم سيغيرون على صالح وأهله ليلًا ويقتلونه، وإذا سأههم أحد سيقولون لا نعلم شيئًا عن الحادث. ولكن مكر الله غلب في نهاية المطاف. وبالفعل ترون ديار القوم خربة لا يسكنها أحد. (الآيات ٤٦-٥٤)

ثم ذكر الله تعالى حادث لوط عليه السلام، وأخبر أنه هوى قومه عن الشذوذ الجنسي فخالفوه، فقلبت مدينتهم بالزلزال رأسًا على عقب ودُمروا تدميرًا. (الآيات ٥٥-٥٩)

بعد ذكر هؤلاء الأنبياء يقول الله ﷻ: الله الذي يحمي عباده من الهلاك خيرٌ أم الآلهة الباطلة التي لم ينجح أحد ممن عبدوها قط؟ (الآية ٦٠)

ثم يقول الله تعالى: الله الذي هو رب السماوات والأرض ويُنزل من السحب ماءً فنبت به البساتين من شتى الثمرات خيرٌ أم الآلهة الباطلة التي هي بحاجة إلى هذه المياه والبساتين؟ ومن ذا الذي جعل الأرض صالحة للعيش والسكن، وفجر فيها الأنهار وجعل بين الماء العذب والماء المالح حاجزًا؟ هل يوسع أحد أن يُقدم نداءً وشريكًا لمثل هذا الإله المدبر؟ ثم من ذا الذي يستجيب دعاء المنكوبين عديمي الحيلة فيجعلهم ملوك العالم؟ هل يمكن أن يكون لمثل هذا الإله نداءً وشريك؟ ولكن المؤسف أن الناس لا يتعظون رغم ذلك. (الآيات ٦١-٦٣)

ثم يقول الله من ذا الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يأتيكم بالهواء العليل قبل نزول المطر؟ هل هناك إله سوى الله ﷻ يمكن أن يفعل ذلك؟ وهل

هناك إله سوى هذا الإله القادر المطلق القدرة الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده. الحق أن الله وحده يعلم غيب السموات والأرض، أما آلهتكم الباطلة فهي لا تدري متى كانت بداية دينها الوثني في الدنيا. (الآيات ٦٤-٦٧)

إن الكافرين يقولون دائماً كيف نعود إلى الحياة ثانية نحن وآباؤنا بعد أن مُتتنا وصرنا تراباً، إن هي إلا أساطير الأولين التي تُعاد اليوم؟ يقول الله تعالى إذا كانت هذه الأمور أساطير فحسب فلماذا تعرّض الذين أنكروها للعقاب في زمنهم؟ وما دام أولئك القوم قد عُوقبوا فلن ينجو معارضوك، يا محمد، من عقاب الله ﷻ بعد إنكارهم هذه الأمور. فلا تحزن على هلاكهم الذي سيحل بهم حتماً، ولا يُصيبكم القلق بسبب مكائدهم أيضاً لأنها كلها ستبوء بالفشل. إنهم يقولون لكم متى يأتي هذا العذاب إن كنتم صادقين؟ قل إن بعض هذا العذاب سيأتيهم عاجلاً وبعضه آجلاً، لأن الله ﷻ ذو فضل على العباد فيمهلهم بفضله رغم أنه يعلم نواياهم الخفية وأعمالهم الظاهرة. (الآيات ٦٨-٧٥)

إن الله ﷻ يعلم ما في السماوات والأرض من أمور خفية، ومن الأدلة على ذلك أنكم ترون أن القرآن الكريم يقول الحق دائماً، أما الكتاب المقدس وغيره من الصحف السماوية فقد تسربت إليها أنواع الأخطاء بمرور الزمن. إن هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين ولن يكشف الله ﷻ بالقرآن أن بني إسرائيل قد انحرفوا عن جادة الحق فحسب، بل سيفصل به بين الفئات الإسرائيلية كلها ويجعل الصادقين غالبين على الكاذبين. (الآيات ٧٦-٧٩)

إنما واجبك أن تتوكل على الله ﷻ. ولا شك أن تبليغ الرسالة واجبك، ولكن الذين ماتت قلوبهم لا يمكن إقناعهم، وإن الأخرس إذا ولى مُعرضاً لم يفهم بالإشارة أيضاً، ولم يبقَ سبيل هدايته، ونفس الحال بالنسبة للأعمى الذي لا يُريد أن يتبع البصير. إنما تستطيع أن تهدي إلى الحق من يؤمن بآيات الله ﷻ. (الآيات ٨٠-٨٢)

عندما يحين هلاكهم يُخرج الله من الأرض دابة تكلمهم، وسيعلم الناس أنهم قد نالوا هذا العقاب لأنهم لم يكونوا موقنين بقول الله ﷻ. (الآية ٨٣)

اذكر ذلك اليوم الذي سنُقيم من كل قوم يكفرون بآياتنا جماعةً كبيرةً، ثم نجعل هذه الجماعات أحزاباً شتى، أي ستتكون في العالم اتحادات شتى، وتدعو فئة من كل قوم وشعب إلى الإلحاد على وجه خاص، وسيستمر هذا إلى أن يصدر قرار العقاب بحقهم من عند الله ﷻ، فلن يملكوا الكلام عندها. (الآيات ٨٤-٨٦)

إنهم لا يفكرون أننا أتينا عليهم بالليل - أي بالزمن الذي يكون بعيداً عن زمن النبوة - ليتزودوا بكفاءات الرقي ثانية، ولكنهم قد أصبحوا فيه أكثر كسلاً، إذ لم ينتفعوا من النهار أي من النبوة. (الآية ٨٧)

سيأتي يوم يُنفخ فيه الصور، أي سيأتي زمن تتناحر فيه الأمم فيما بينها تتحارب، ويُصاب كل من في السموات والأرض بالذعر، وبرغم أن هذا الدمار يكون شاملاً إلا أن باب الدعاء عند الله ﷻ سيظل مفتوحاً. (الآية ٨٨)

وترى الجبال وتظن أنها جامدة مع أنها تجري كما تجري السحب، بمعنى أن الأرض عندما تتحرك؛ تتحرك السحب معها أيضاً. هذه صنعة الله الذي أتقن كل شيء وهو أعلم بأعمالكم. (الآية ٨٩)

من عمل صالحاً يُجزى به، أما الذين يعملون السيئات فيُكبون في النار على وجوههم، إلا أن جزاء السيئة لن يكون أكثر منها. (الآيات ٩٠-٩١)

يا محمد قل للناس إن الله قد أمرني أن أعبد ربَّ هذه البلدة.. أي أن أتبع التحلي الرباني الذي ظهر في مكة بواسطة إبراهيم، وأن أكون نموذجاً عملياً حياً للطاعة، وأن أقرأ القرآن على الجميع. وأنا لا أمارس الإكراه على أحد إذ ليس عليّ إلا أن أبلغ الناس رسالة الحق، فإن شاءوا آمنوا به وإن شاءوا رفضوا. ولكن هذا لا يعني أن الله ﷻ سيظل صامتاً على إنكارهم، بل إنه سينزل من السماء حتماً ويريهم الآيات بحيث يروونه ﷻ ماثلاً أمامهم. (الآيات ٩٢-٩٤)